

وهذا دليل على قوة إيمانه وتجرده من العصبية للعشيرة ، حيث فضل قرابة رسول الله ﷺ علي قرابته، فإن ذلك يعدُّ من إكرام النبي صلى الله عليه وسلم في أهل بيته.

وذكر محمد بن سعد في عدة أخبار أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر والي المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يقسم بين بني هاشم بالسوية عشرة آلاف دينار، وذلك من حقهم في خمس ما أفاء الله تعالى يوم خيبر، فشكروه في ذلك، وكان فيمن كتب إليه بالشكر على ذلك فاطمة بنت الحسين، عليه السلام، وقد ذكر ابن سعد كتابها في ذلك من رواية يحيى بن أبي يعلى قال: لما قدم المال على أبي بكر بن حزم فقسمه أصاب كل إنسان خمسين دينارًا. قال فدعتني فاطمة بنت حسين وقالت: اكتب، فكتبتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما ولاه وعصم له دينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا ما لا من الكتبية^(١) ويتحرى بذلك ما كان يصنع من كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين، فقد بلغنا ذلك وقسم فينا، فوصل الله

(١) الكتبية جزء من خير فيه بسايتين.

أمير المؤمنين وجزاه من وال خير ما جزى أحدًا من الولاة، فقد كانت أصابتنا جفوة واحتجنا إلى أن يُعمل فينا بالحق ، فأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لا خادم له واكتسى من كان عاريًا واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق. وبعثت إليه رسولاً قال: فأخبرني الرسول، قال: فقدمتُ عليه فقرأ كتابها وإنَّه ليحمد الله ويشكره وأمر لي بعشرة دنانير، وبعث إلى فاطمة بخمسمائة دينار وقال: استعيني بها علي ما يعروك. وكتب إليها بكتاب يذكر فضلها وفضل أهل بيتها ويذكر ما أوجب الله لهم من الحق. قال : فقدمت عليها بذلك المال.

قال عبد الملك بن المغيرة: فاجتمع نفر من بني هاشم فكتبوا كتابًا وبعثوا به مع رسول إلى عمر بن عبد العزيز يتشكرون له ما فعله بهم من صلة أرحامهم وأنهم لم يزالوا مجففين منذ كان معاوية. فكتب عمر بن عبد العزيز: قد كان رأيي قبل اليوم هذا ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان فأبيا عليّ ، فلما وليتُ هذا الأمر تحرّيتُ به الذي أظنه أوفق إن شاء الله^(١).

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩١.

اهتمامه بالإصلاح بين الناس:

من جهود أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح، ما ذكره ابن عبد الحكم قال: وجاء رجل من أهل المشرق هو وابن أخ له، فاختصما عند عمر بن عبد العزيز، قال: بينما الشيخ يريد الصلة والصلح إذ غضب فدعته نفسه إلى القطيعة، فنظر إليه عمر فقال: ما رأيت أحلى منك ولا أَمَرَّ، ولا أبعد ولا أقرب، بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم -وله شاربان قد غطّيا فاه -فقال: يا مينا- لحجّام له-: أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شارب به ثم اتّني به، ففعل، فقال عمر: هذا أطيب وأنظف مع الفطرة، هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك، قالوا: نعم، فأصلح ذات بينهما، فرفع عمر يديه إلى السماء وقال: الحمد لله^(١).

فهذا مثل من أمثلة نجاح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح بين الناس، والإصلاح باب مهم من أبواب الدعوة وفعل الخير، وأقدر الناس عليه من خولهم الله تعالى مسؤولية على المسلمين،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢١ .

لما لهم من حق الطاعة، فإذا تم الإصلاح على أيديهم فهي نعمة عظيمة تستحق الشكر والحمد، ولذلك حمد عمر الله تعالى لما وفقه من الإصلاح بين الرجلين.

وفي اهتمام عمر بالتخفيف من شارب ذلك الرجل، دليل على حرصه على تطبيق السنة رحمه الله تعالى.

نماذج من مواعظه وحكمه :

من ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى القرظي^(١): أما بعد فقد بلغني كتابك تعظني، وتذكر ما هو لي حظ وعليك حق، وقد أصبت بذلك أفضل الأجر، إن الموعظة كالصدقة، بل هي أعظم أجراً وأبقى نفعاً، وأحسن ذخراً، وأوجب على المرء المؤمن حقاً، لكلمة يعظ بها الرجل المؤمن أخاه ليزداد بها في هدى رغبة خير من مال يتصدق به عليه وإن كان به إليه حاجة، ولما يدرك أخوك بموعظتك من الهدى خير مما ينال بصدقتك من الدنيا، ولأن ينجو رجل بموعظتك من هلكة خير من

(١) هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي، من علماء التابعين.

أن ينجو بصدقتك من فقر، فعظ من تعظه لقضاء حق عليك، واستعمل كذلك نفسك حين تعظ، وكن كالطبيب المجرب العالم الذي قد علم أنه إذا وضع الدواء حيث لا ينبغي أعنته وأعنت نفسه، وإذا أمسكه من حيث ينبغي جهل وظلم، وإذا أراد أن يداوي مجنوناً لم يداوه وهو مرسل حتى يستوثق منه ويوثق له، خشية أن لا يبلغ منه من الخير ما يتقي منه من الشر، وكان طبعه وتجربته مفتاح علمه. واعلم أنه لم يُجعل المفتاح على الباب لكيما يغلق فلا يفتح، أو ليفتح فلا يغلق، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه^(١).

في هذا الكتاب توجيه جيد من أمير المؤمنين عمر بن العزيز نحو القيمة الكبرى للوعظ والتذكير، حيث بين أن إهداء الموعدة للأخ المسلم أفضل من إهداء المال إليه، ذلك لأن دعوة المسلم إلى الاستقامة على الدين تعني منحه خيري الدنيا والآخرة، فأما الدنيا فإن الاستقامة تعني صلاح أمور الحياة والحماية من الأضرار التي تنتج عن السير على هدى العقل المجرد، وأما في الآخرة فإن الاستقامة في الدنيا تعني رفعة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٢-١٣٣.

الدرجات في الجنة والسلامة من عذاب النار، فهل هناك هدية تقدم للمسلم من أخيه أعظم من موعظة هادية صادرة من القلب؟! كما أن في هذا الكتاب توجيهًا نحو المنهج السديد في الدعوة، حيث بين عمر بن عبد العزيز أن الواعظ كالطبيب، والموعظة كالدواء، فلا بد للطبيب الناجح أن يكون عالمًا بفنه حاذقًا بتطبيق ذلك العلم، وأن يحسن اختيار الدواء وطريقة تناوله وما يجذر منه أثناء ذلك، فكذلك الواعظ لابد أن يكون متزودًا بالعلم النافع وأن يكون مخلصًا في عمله حكيماً في عرض مواعظه.

اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن ناسًا يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة وإن مصيرهم ومرجعهم إلى الله، وإن ناسًا من هؤلاء القصاص يُصلُّون على خلفائهم وأمرائهم^(١) فمروهم فليدعوا للمؤمنين عامة وليلغوا ما سوى ذلك.

(١) يعني يدعون لهم.

قال: وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة: أما بعد فإن ناسًا من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة الدنيا وإنما مصيرهم ورجعهم إلى الله بعد الموت، وقد بلغني أن ناسًا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عدلًا ما يصلون على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك. والسلام.

قال جعفر: أحب أن لا يذكروا مع النبي ﷺ^(١).

هذا الخبر يصحح خطأً حدث بعد عصر الخلفاء الراشدين، حيث دأب بعض الخطباء على ذكر الأمراء في خطب الجمعة، إما بالثناء عليهم أو بالدعاء لهم، وذلك يتضمن تسوية هؤلاء الأمراء برسول الله ﷺ الذي شرعت الصلاة عليه في الخطب، كما أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل التعظيم لأولئك الولاة مما قد يترتب عليه وقوع في الشرك، إضافة إلى أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل النفاق

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٣، والجزيرة سميت بذلك لأنها بين دجلة والفرات،

والجزيرة اليوم قسم منها في سوريا وقسم منها في تركيا وقسم في العراق - معجم أماكن

الفتوح / ٣٢ - .

والتقرب للولادة للحصول على شرف الدنيا كما جاء في هذا الخبر،
فلذلك أصدر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمره بمنع الخطباء من
ذلك حماية لتوحيد الله تعالى وحق النبي ﷺ.

كتابه لبعض عماله في التزهيد في الدنيا :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن إبراهيم
ابن أبي حبيبة. أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله، أما بعد:
فإني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته، فإن بتقوى الله نجا أولياء الله
من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته. وبها رافقوا أنبياءهم، وبها نصرت
وجوهم، وبها نظروا إلى خالقهم، وهي عصمة في الدنيا من الفتن،
والمخرج من كُرب يوم القيامة، ولم يقبل ممن بقي إلا بمثل ما رضي
عمن مضى ولمن بقي عبرة فيما مضى، وسنة الله واحدة، فبادر بنفسك
قبل أن تؤخذ بكظمك، ويخلص إليك كما خلص إلى من كان قبلك،
فقد رأيت الناس كيف يموتون وكيف يفرقون، ورأيت الموت كيف
يعجل التائب توبته وذا الأمل أمله، وذا السلطان سلطانه، وكفى
بالموت موعظة بالغة، وشاغلا عن الدنيا، ومرغبًا في الآخرة، فنعود
بالله من شر الموت وما بعده، ونسأل الله خيره وخير ما بعده. ولا

تطلبين شيئاً من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك،
فيزرى بدينك، ويمقتك عليه ربك، واعلم أن القدر سيجري إليك
برزقك ويوفيك أملك من دنياءك بغير مزيد فيه بحول منك ولا قوة،
ولا منقوصاً منه بضعف. إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك وأخبت
لقضاء ربك، واعتبر بما قسم الله لك من الإسلام ما زوي منك من
نعمة الدنيا، فإن في الإسلام خلفاً من الذهب والفضة من الدنيا
الفانية، اعلم أنه لن يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه
في الدنيا من فقر أو بلاء، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى
النار ما أصاب من الدنيا من نعمة أو رخاء، ما يجد أهل الجنة مس
مكروه أصابهم في دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في
دنياهم، كل شيء من ذلك كأن لم يكن. تشيعون غادياً أو راءحاً إلى
الله قد قضي نحبه، وانقضى أجله، وتغيّبونه في صدع من الأرض، ثم
تدعونه غير متوسد ولا متمهد، فارق الأحبة، وخلع الأسلاب،
وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهاً بعمله، فقيراً إلى ما قدم غنياً
عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موافاته، وإيم الله إني

لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وأستغفر الله وأتوب إليه^(١).

هذا وإنني أرى الحاجة إلى التعليق على بعض ما جاء في هذا الخطاب من التوجيهات المهمة:

١ - الحث على تقوى الله عز وجل، والتقوى ترفع أفراد المجتمع حتى يكونوا من الطبقة الممتازة الذين حكم الله تعالى لهم بأنهم أكرم الناس، وذلك في قوله ﷺ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣] وبالمؤمنين قامت الدعوة إلى الله عز وجل وانتشر الإسلام وقامت دولته ورفعت راية الجهاد.

٢ - التذكير بالموت وأحوال الآخرة، وهذا أقوى دافع نحو الاستقامة على الفضائل وأقوى رادع عن الانحراف نحو الرذائل. وكل ما عظم ذكر الموت وما بعده عند الإنسان استقام وابتعد عن الظلم والإفساد في الأرض.

٣ - التذكير بالإيمان بالقدر، وأن يرضى المسلم بقضاء الله وقدره، فلا

(١) الحلية ٥/ ٢٧٨-٢٧٩.

يحزن لما أصابه من البلاء، ولا يندم على ما فاتته من الرخاء.
٤ - التذكير بنعمة الإسلام، فكل ما يصيب الإنسان من الأمراض
والفقر والبلاء يهون عندما يذكر المسلم هدايته لهذا الدين العظيم.

وصيته للقضاة:

من وصاياه في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يحيى بن
سعيد أن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضيًا
حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حلیم، عالم بما كان قبله،
يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس^(١).

فالعفة تُحصن القاضي من أخذ الرشوة بأي شكل من أشكالها
وتحول بينه وبين النفعيين الذين يريدون أن يُسخرُوا القاضي لمنافعهم
الدنيوية.

والحلم يمنع القاضي من التفوه بما لا يليق من الكلام، ويمنحه
الفرصة الكافية لاستيعاب ما يقوله الخصوم.

والعلم بما كان قبله يمنحه الخبرة القضائية، حيث يستفيد من

(١) طبقات ابن سعد ٥/٢٦٩-٣٧٠.

دراسة أحكام القضاة الذين سبقوه، وهذه أبلغ دراسة يستفيدها القاضي لأنها دراسة ميدانية.

واستشارة ذوي الرأي مهمة جدًا في التوصل إلى أحكام مدروسة من عدة عقول، فالذي يستشير أهل الرأي يملك عقولاً كثيرة بينما الذي لا يستشير لا يملك إلا رأياً واحداً.

أما عدم المبالاة بملامة الناس فهو الجنّة الحصينة التي تحمي صاحبها من التأثير بأقوال المخذّلين والمعوّقين الذين ينفرون من الإصلاح إذا خالف هواهم وهوى أصحاب النفوذ من وجهاء الناس.

ولم يذكر عمر بن عبد العزيز العلم بالشرعية لأنه أمر معلوم حيث لا يصل القاضي إلى منصب القضاء إلا إذا كان من العلماء.

حثه على التقوى:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر مسيرة الحضرمي: أن عمر بن عبد الله العزيز كان يقول: ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله

وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرًا فهو خير إلى خير^(١).
في هذا الخبر بيان لحقيقة التقوى، فالتقوى هي اتقاء سخط الله تعالى وعذابه، وإنما يكون ذلك بفعل جميع الواجبات التي فرضها الله سبحانه، لأن تركها يترتب عليه العذاب، واجتناب جميع المحرمات التي حرمها لأن فعلها يترتب عليه العذاب، أما النوافل فإنها يترتب الثواب على فعلها ولا يترتب العذاب على تركها، فلو أن إنسانًا صام أفضل الصيام وهو صيام يوم بعد يوم وقام أكثر الليل ثم ترك واجبًا أو فعل محرّمًا لم يكن من المتقين في الظاهر، وإن كان قد يغفر الله له السيئات الصغيرة بالحسنات، لكن أمر المغفرة علمه عند الله تعالى، وفي هذا الخبر تحذير للذين يهتمون بالنوافل ويتساهلون ببعض الفرائض من أداء الواجبات وترك المحرمات.

كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر جعونة بن الحارث قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم أما بعد: فإني أشهد الله

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٣٠.

وأبرأ إليه في الشهر الحرام ويوم الحج الأكبر أني بريء من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته، إلا أن يكون وهماً مني، أو أمراً خفي علي لم أتعلمه، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا مُعَوَّل كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثر على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يُصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحسبة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرءاً لم يتعاضمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني

إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم^(١).

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده، يسعى في تثبيته إذا استقام وفي تقويمه إذا انحرف.

وإذا كان المتقون في كل بلد مسؤولين عن سير الحكم فيه فلن يستطيع أي حاكم - وإن ضعف إيمانه - أن يحكم بهواه ولا أن يحكم بأهواء النفعيين الذين لا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة.

ثم يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن المال في عهده لن يكون دُولَةً بين الأغنياء ولا مستأثراً به عن الفقراء لأن الفيء يقسم

(١) حليه الأولياء ٥/٢٩٢-٢٩٣.

على عامة المسلمين بالتساوي.

ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يقعد به التفكير في تأمين تلك النفقة.

ثم يختم كتابه بشكر المنعم جلّ وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى، بحيث يتلاشى حظ النفس، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعاونته.

من خطبه في الزهد

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر الحسين بن محمد الخزاعي عن رجل من ولد عثمان أن عمر بن عبد العزيز قال في بعض خطبه: إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسي قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بُسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد

مساءه، ولا يمسي بعد صباحه، ولربها كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وإنما تقرر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يداوي كَلِّماً^(١) إلا أصابه جرح في ناحية أخرى^(٢) أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر غيلتي، وتبدو مسكتي، في يوم يبدو فيه الغني والفقر، والموازن منصوبة، ولقد عنيتم بأمر لو عُنِيتَ به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما!^(٣)

فهذا تذكير بليغ بالحياة الآخرة وما فيها من سعادة ونعيم وأهوال وشقاء، فعمر بن عبد العزيز يوجه سامعيه إلى أن يكون إيمانهم بالغيب كإيمانهم بالمشاهد، فلما كانت أمور الآخرة غيباً عنهم فليتصوروها وكأنها أمامهم، وهذا هو الإحسان الذي بينه النبي ﷺ

(١) الكلم بالفتح الجراحة والجمع كلوم.

(٢) يعني فكيف يفرح؟

(٣) حلية الأولياء / ٢٩١ - ٢٩٢.

بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه»^(١). فالذي يتصور الآخرة أمامه تقصر عنده الدنيا ويصبح يتوقع الموت قي كل لحظة، وبهذا يوجه سلوكه وأعماله لما يسعده في الآخرة.

موعظة له في التوكل والعفة:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ من إخوانه في الله عز وجل، فكان في كتابه: لا تطلبن شيئاً من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك ويزري بدينك ويمقتك عليه ربك، واعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوفيك أكلك من دنياك غير متزيد فيه بحول منك ولا قوة ولا منتقص منه بضعف، إن ابتلاك الله عز وجل بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك، واغترف بما قسم الله لك من الإسلام ما زوى عنك من نعمة دنياك، فإن في الإسلام خلفاً من الذهب والفضة والدنيا الفانية، واعلم أنه لا يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع

(١) صحيح مسلم، رقم ٨، كتاب الإيمان (ص ٣٦).

عبدًا صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصابه من نعمة أو رخاء، ما يجد أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كأن شيئًا من ذلك لم يكن^(١).

وهذا الكتاب فيه عدة توجيهات :

الأول : النظر إلى الآخرة وتقديمها على الدنيا وأن يجعل المسلم الآخرة هي المحكّمة في أمور الدنيا، فلا يُقدّم على أي قول أو عمل يضر بآخرته .

الثاني : الإيمان بقدر الله تعالى إلى حدّ اليقين بأن الإنسان سيحصل على رزقه الذي كتبه الله له ، وأنّ جهده في الزيادة فيه أو العوارض التي تؤدي إلى نقصه .. كل ذلك لا أثر له فيما كُتب له .

الثالث : أن لا يتضجر المسلم من قضاء الله وقدره وإن تعرّض للفقر ، فإن في هدايته للإسلام خلفًا من كل أموال الدنيا .

خطبة له وجيزة بليغة :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر ابن العيزار قال: خطبنا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٢ .

عمر بن عبد العزيز بالشام على منبر من طين فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم تكلم بثلاث كلمات فقال: أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكفوا دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب مُعَرَّق له في الموت^(١)، والسلام عليكم^(٢).

فهذه الخطبة الموجزة تشتمل على ثلاث مواعظ: الأولى صلاح العمل الظاهر، فالأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته هي الشيء الذي يعلنه ويراه الناس، وما يُكنُّه قلبه من النيات والمقاصد هو الشيء الذي يُسرّه، فإذا أصلح الإنسان قلبه وطهره من النوايا السيئة صلحت أعماله الظاهرة، فالجنايات والأعمال العدوانية مثلاً هي نتيجة لما يكنه القلب من الغل والحسد والبغضاء، والتنافس على مظاهر الحياة من لباس وفراش ومراكب ومساكن هو نتيجة لما يكنه القلب من تعظيم الدنيا وتضخيمها، والاستقامة على طاعة الله تعالى

(١) يعن إذا كان آباؤه جميعاً إلى آدم قد ماتوا فإنه حتماً سيموت.

(٢) الزهد للإمام أحمد/ ٢٩٦، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٨٦.

واجتناب معصيته هما نتيجة لما يكنه القلب من حبه وتعظيمه والخوف منه، وكذلك كل الأعمال الظاهرة فإنها مبنية على سرائر القلوب.

والثانية: العمل للآخرة على أنها هي المطلب الأعلى والمقصد الأسمى، فإذا شغل الإنسان فكره بالعمل للآخرة سخر الله تعالى له من الدنيا ما يعينه ويكفيه من غير إعمال فكر، وفتح له من أبواب الرزق ما لا يخطر له على بال.

والثالثة: التذكير بالموت بأسلوب مؤثر، فالإنسان إذا تذكر أن جميع آبائه الذين يصلونه بآدم عليه الصلاة والسلام في النسب قد ماتوا فكيف يؤمل بالبقاء؟! ولماذا لا يحمله ذكر الموت على الاستقامة والعمل لما بعد الموت؟!

آخر خطبة خطبها:

أخرج الحافظ أبو نعيم الصبهي من خبر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز هذه الخطبة وكانت آخر خطبة خطبها، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل

بينكم، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحرم جنة عرضها
السموات والأرض، ألم تعلموا أن لا يأمن غداً إلا من حذر الله اليوم
وخافه وباع نافداً بباق وقليلًا بكثير، وخوفاً بأمان؟ ألا ترون أنكم في
أسلاب الهالكين، وستصير من بعدكم للباقيين، وكذلك حتى تردوا
إلى خير الوارثين، ثم إنكم تشيِّعون كل يوم غادياً ورائحاً، قد قضى
نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع، ثم تتركوه غير ممهد ولا
موسد، فارق الأحباب، وباشر التراب، ووجه للحساب، مرتين بما
عمل غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله وموافاته وحلول
الموت بكم، أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب
أكثر مما عندي وأستغفر الله، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجته لا يسع
له ما عندنا إلا تمنيت أن يُبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه
واحداً، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش لكان اللسان به
ذلولا، وكنت بأسبابه عالماً، ولكن سبق من الله كتاب ناطق، وسنة
عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته ثم رفع طرف

ردائه فبكى وأبكى من حوله^(١).

فهذه خطبة بليغة في التذكير بالموت والعمل للآخرة، ولقد كان - رحمه الله - نذيرًا للعالم في عصره، ذلكم العصر الذي غرق أكثر الناس فيه بالتوجه نحو مظاهر الحياة الدنيا واشتغلوا بذلك عن ذكر الموت وما بعده، فما زال يلح على الناس بالتذكير بمختلف الأساليب والمناسبات حتى أحى الله به قلوبًا ميتة وذكّر الله به قلوبًا غافلة، وحكم له بالصلاح ملوك العالم من غير المسلمين فضلًا عن المسلمين، ثم ما زالت سيرته الزكية بعد موته مادة غزيرة في الدعوة إلى الله تعالى وإصلاح المجتمعات الإسلامية.

فهمه لشمول العبادة:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن زيد بن جدعان قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب بخصاصة فسمعتة يقول: ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتتاب المحارم^(٢).

وأخرج من خبر عبد العزيز بن أبي رواد قال: قال عمر بن عبد

(١) حلية الأولياء ٢٩٥/٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي/ ١٩٠.

(٢) حلية الأولياء ٢٩٦/٥.

العزیز: الکلام بذكر الله حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة^(١).
فهذا فهم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لشمول العبادة
لكل أمور الدين، فإن إطلاق العبادات على أمور الشعائر التعبدية
كالصلاة والصيام والحج إطلاق اصطلاحی لتمييزها عن أمور الدين
الأخرى، ولا يعني ذلك عدم شمول العبادة لسائر أمور الدين، ومن
أبرز الأدلة على شمول العبادة قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦] فإن العبادة في الآية تشمل
جميع أمور الدين.

تعزيتة البليغة لأهل صديقه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن الحسين قال:
كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات، فجاء أنه قد
مات، فجاء إلى أهله يعزيهم فصرخوا في وجهه فقال لهم عمر: إن
صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم وإن الذي يرزقكم حي لا يموت، وإن
صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حُفركم، إنما سد حفرة نفسه، وإن لكل

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٤.

امرئ منكم حفرة لا بدَّ والله أن يسدها، إن الله تعالى لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، ولا امتلأت دارٌ حَبْرَةً إلا امتلأت عبْرَةً، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها، فمن كان منكم باكيًا فليبك على نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدًا^(١).

فهذا نموذج رائع في التعزية، أكد فيه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أن الرزاق هو الله جل وعلا وحده، فلا يجوز لأهل الميت أن يشعروا بأنهم قد فقدوا بفقده مصدر رزقهم وذكرهم بأن ميّتهم قد سار إلى مآل هم صائرون إليه، وإنما الفرق بينهم وبينه أنه قد سبقهم إلى ذلك المصير، فليشتغل كل إنسان بالتفكير بالمصير الذي هو صائر إليه عما قريب، وإن في ذلك لشغلًا عن الحزن على الفقيد، كما ذكرهم بأن الدنيا ليست دار سرور دائمًا فلا ينبغي للمسلم أن يتألم لما يصيبه فيها من مصائب، وإنما هي دار ابتلاء وعمل ونصب، فليس من خلق المسلم أن يكون هلوغًا جزوعًا عند مواجهة المصائب.

(١) حلية الأولياء ٥/٣٢٩-٣٣٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/٢٣٠.

مثل من صبره ويقينه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سهل بن الربيع بن سبرة حدثني أبي عن أبيه الربيع قال: لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وسهل بن عبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة، دخل الربيع بن سبرة عليه وقال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، فما رأيت أحداً أصيب أعظم من مصيبتك في أيام متتابعة، والله ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه، فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيجت عليه، قال ثم رفع رأسه فقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فأعدت عليه ما قلت أولاً، قال: لا والذي قضى عليهم بالموت، ما أحب شيئاً من ذلك كان لم يكن.

وأخرج أيضاً من خبر عثمان بن عبد الحميد حدثني أبي. قال: بلغنا أن ابناً لعمر بن عبد العزيز مات صغيراً، فدخل عليه الناس يعزونه وهو ساكت لا يتكلم طويلاً حتى قال بعضهم إن ذا لمن جزع، قال ثم تكلم فقال: الحمد لله دخل ملك الموت حجرتي فذهب

ببعض، وكأنه ذهب بي^(١).

فهذا مثال على الرضى بقضاء الله وقدره والصبر على المصائب، فعلى الرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا هم خاصته الذين كان يتقوى بهم ويستشيرهم، وعلى الرغم من تتابع المصيبة بفقدانهم فإنه قد بدا جميل الصبر راسخ اليقين مؤمناً بأن الأمور كلها بيد الله عز وجل وأن الخير فيما قضاه وقدره.

وفي الخبر الثاني نجده يحمد الله تعالى على أن ملك الموت دخل حجرته فذهب ببعضه لما مات ابنه فكأنه هو الذي ذهب به، وفي ذلك توطين للنفس على مواجهة الموت واشتغال بانتظاره والاستعداد لما بعده بالعمل الصالح عن الحزن على فقد أحد الأقارب وإن كان عزيزاً على النفس.

جوابه على من قال أبقاك الله :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل من خبر طلحة بن يحيى قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فجاءه رجل فقال له: يا

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٠.

أمير المؤمنين أبقاك الله ما كان البقاء خيراً لك، فقال: أما ذاك فقد فُرِغَ منه ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار^(١).
فهذا جواب سديد، لأن الدعاء بالبقاء وطول العمر لا معنى له، حيث إن الإنسان يُكتب له أجله وهو في بطن أمه، وإنما ينبغي أن يُدعى للمسلم بالسعادة في الدنيا والآخرة.

من مواعظه البليغة:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر خالد بن دينار قال قال عمر لميمون بن مهران: يا ميمون لا تدخل على هؤلاء الأمراء وإن قُلتَ أمرهم بالمعروف، ولا تخلونَّ بامرأة وإن قُلتَ أقرئها القرآن، ولا تصلنَّ عاقاً فإنه لن يصلك وقد قطع أباه^(٢).

فهذه ثلاث مواعظ في غاية الجودة:

فالأولى: النهي عن الدخول على الأمراء، والمحذور الذي خافه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ذلك أن يتأثر من دخل عليهم

(١) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٧-٢٩٨، وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥ / ٣٣٠، وسيرة عمر

بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٠٦.

(٢) حلية الأولياء ٥ / ٢٤٥.

بشيء من مظاهر الحياة التي يتغالى كثير منهم فيها، فيكون ذلك سبباً في فتنة من دخل عليهم، أو يقصر في إنكار المنكرات عليهم أو يوافقهم في بعض ذلك فيكون آثماً، ولعل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى من واقع تجربته مع الأمراء قد رأى فيمن يدخلون عليهم خللاً في دينهم.

وهذا الأمر لا يؤخذ على إطلاقه في جميع الأحوال، بل قد يكون الدخول على الأمراء واجباً لإنكار المنكر فيما إذا كان ذلك متعيناً على فرد أو طائفة من المسلمين، وقد يكون مستحباً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما إذا لم يكن متعيناً على الشخص، وقد يكون محرماً فيما إذا تأكد الإنسان من ضرورة وقوعه في الإثم، أو يتردد الأمر بين الاستحباب والكراهة، وذلك فيما إذا لم يتعين عليه إنكار المنكر وخشي من الوقوع في الإثم، وفي كلتا الحالتين فالأمر يحتاج إلى اجتهاد العالم في ترجيح مصلحة الإسلام والمسلمين.

والثانية: النهي عن أن يخلو الرجل بامرأة وهو من غير محارمها، وإن كان الدافع لذلك إقراءها القرآن، وهذا واضح في الشريعة ولا

يجوز التساهل لقول رسول الله ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم» أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما^(١).

والثالثة: عدم وضع الثقة بمن عى والديه، لأنه قد خان الأمانة ولم يتخلق بخلق الوفاء لمن رعاياه وخداماه وبذلا له مَهَجُهُما في الصغر وهو في أمس الحاجة إليهما، فإذا عَقَّ الإنسان والديه أو أحدهما لم يكن أميناً معهما ولا وُفياً لهما فأحرى به أن لا يكون أميناً ولا وُفياً مع غيرهما.

موعظته لمن سألَه شيئاً من الدنيا :

قال ابن الحكم: وكان رجل من قريش-وكانت الخلفاء لا ترده عن حاجة-فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله حاجته فقال عمر بن عبد العزيز: لا يجوز هذا، ورده عنها، فخرج مغضباً فناداه عمر فظن أنه قد بدا له في قضاء حاجته فقال له: يا أبا خالد فرجع إليه فقال له: إذا رأيت شيئاً من الدنيا فأعجبك فاذكر الموت فإنه يقلّله في نفسك، وإذا

(١) صحيح البخاري، رقم ٥٢٣٣، النكاح (٩/ ٣٣٠) صحيح مسلم، رقم ١٣٤١، الحج (ص ٩٧٨).

كنت في شيء من أمر الدنيا قد غمَّك ونزل بك فاذا ذكر الموت فإنه يسهِّله عليك، وهذا أفضل من الذي طلبت^(١).

نماذج من أدبه وحكمته :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر المدايني قال: دخل حريث بن عثمان الدجني مع أبيه على عمر بن عبد العزيز فسأل الأب عن الابن ثم قال له: علمه الفقه الأكبر، قال: وما الفقه الأكبر؟ قال: القناعة وكف الأذى^(٢).

والفقه الأكبر بمعنى الفهم الأكبر في الدين، ومن تأمل في هذين الأمرين اللذين اختارهما عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يجد أنهما من أمور الدين المهمة، فالذي يُرزق القناعة يتورع عن اكتساب المال عن طريق المحرمات والشبهات، ويعف نفسه عن السؤال والتطلع إلى ما في أيدي الناس، ويسلم من أخلاق السوء كالحسد والغل والحقْد، أما كف الأذى فهو أن يعصم الإنسان جميع جوارحه من الاعتداء على المسلمين، ومن أبرز ذلك حفظ اللسان من الغيبة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٧-١٦٨.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٥.

والنميمة وغير ذلك من فلتات اللسان، ويكفي في بيان أهمية كف الأذى عن المسلمين أن النبي ﷺ عدَّ من طبق ذلك هو المسلم حقًّا كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده^(١).

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز فقال رجل لرجل: تحت إبطك، فقال عمر: وما على أحدكم أن يتكلم بأجمل ما يقدر عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: لو قال: تحت يدك كان أجمل^(٢).

فهذا توجيه إلى حسن اختيار الألفاظ الذي تؤدي المقصود ولا يتقرز الناس من سماعها، فذلك من الأدب في الحديث.

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي هاشم القرشي قال: قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز قد زوجك أمير المؤمنين

(١) صحيح البخاري، رقم ١١، الإيمان (٥٤ / ١) صحيح مسلم، رقم ٤٠، الإيمان (٦٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٧.

فاطمة بنت عبد الملك، فقال وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت العطية وكفيت المسألة، فأعجب به عبد الملك، فقال بعض أولاد عبد الملك هذا كلام تعلمه فأداه، فدخل على عبد الملك يوماً فقال: يا عمر كيف نفقتك؟ فقال الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين، قال فما هما؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فقال عبد الملك: من علمه هذا^(١).

فهذا الخبر يدل على سرعة بديهة عمر بن عبد العزيز ومقدرته على اختيار الألفاظ الجزلة والمعاني العميقة، وسرعة الاستشهاد بالآيات القرآنية المناسبة، وقد كان عبد الملك بن مروان معجباً بفكره وحكمته وأدبه.

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر علي بن بكار قال قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه فإنه يُلَقَّى الحكمة^(٢).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨١.

والمقصود بالحكمة وضع الشيء في موضعه من قول أو عمل، وهي تنتج عن التفكير السوي الذي يأتي نتيجة التأمل الطويل العميق، وهذا التأمل لا يحصل غالباً إلا بشيء من العزلة والجو الهادئ البعيد عن الضجيج والارتباطات الاجتماعية التي تشغل الفكر بالأمور الحالية وإن كانت غير مهمة، ولا تترك للفكر مجالاً واسعاً للتأمل العميق.

وليس هذا الأمر على إطلاقه فربما يُلقَى الإنسان الحكمة مع كثرة الارتباطات الاجتماعية لكونه ذا مقدرة عالية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لاحظ بتجاربه أفراداً من الناس يمتازون بالحكمة، ورأى أن أبرز صفاتهم كثرة الصمت وحب العزلة فعبر عن نتائج تجاربه التي رآها.

تأثره من شعر الزهد واستشهاده به :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الصمد بن عبد الأعلى قال: كان عمر بن عبد العزيز وجّه عبد الأعلى بن أبي عمرة رسولاً إلى طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام، فقال له عبد الأعلى: يا أمير المؤمنين

اِئْذَنْ لِي فِي بَعْضٍ وَلَدِي يُخْرِجُ مَعِيَ -وَكَانَ أَبَا عَشْرَةٍ- فَقَالَ لَهُ: مَنْ
يُخْرِجُ مَعَكَ مَنْ وَلَدُكَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ. فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ يَمْشِي
مَشْيَةً مَقْتُهَا، وَبَلَّغَنِي أَنَّهُ يَقُولُ الشَّعْرَ. فَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ أَمَا مَشْيَتُهُ فَغَرِيزَةٌ هِيَ فِيهِ، وَأَمَا الشَّعْرُ فَإِنَّمَا هُوَ نَوَاحَةٌ يَنْوَحُ
عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ يَأْتِينِي الْعَشِيَّةُ وَأَخْرَجَ مَعَكَ غَيْرَهُ، فَرَّاحَ بِهِ
إِلَيْهِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَاسْتَنْشَدَهُ، فَأَنْشَدَهُ:

تَجْهَزِي بِجِهَازِ تَبْلُغِينَ بِهِ	يَا نَفْسُ قَبْلَ الرَّدَى، لَمْ تَخْلُقِي عَبَثًا
وَسَابِقِي بَغْتَةَ الْأَجْيَالِ وَانْكَمْشِي	قَبْلَ الزُّومِ فَلَا مَنَجَا وَلَا غَوْثَا
وَلَا تَكْدِي لِمَنْ يَبْقَى وَتَفْتَقِرِي	إِنْ الرَّدَى وَارِثُ الْبَاقِي وَمَا وَرِثَا
وَاخْشِي حَوَادِثَ صَرْفِ الدَّهْرِ فِي مَهْلٍ	وَاسْتِيقْظِي لَا تَكُونِي كَالَّذِي بَحِثَا
عَنْ مَدِيَّةٍ كَانَ فِيهَا قَطْعُ مَدَّتِهِ	فَوَافَتْ الْحَرْثَ مَوْفُورًا كَمَا حُرِثَا
لَا تَأْمَنِي فَجَعَ دَهْرٍ مَتَرَفٍ خَتَلٍ	قَدْ اسْتَوَى عِنْدَهُ مِنْ طَابٍ أَوْ خَبَثَا
يَا رَبِّ ذِي أَمَلٍ فِيهِ عَلَى وَجَلٍ	أَضْحَى بِهِ آمَنَّا أَمْسَى وَقَدْ حَدَثَا
مَنْ كَانَ حَيْثُ تَصِيبُ الشَّمْسِ جِبْهَتَهُ	أَوِ الْغُبَارِ يَخَافُ الشَّيْنِ وَالشَّعْثَا
وَيَأْلَفُ الظِّلَّ كِي تَبْقَى بِشَاشَتِهِ	فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمًا رَاغِمًا جَدَثَا

في قعر موحشة غبراء مقفرة يطيل تحت الثرى في قعرها اللبثا
قال: فبكى عمر من شعره^(١).

وأخرج الحافظ أبو نعيم من خبر وهيب بن الورد قال: كان
عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:
يُرى مستكينًا وهو للهو ماقت به عن حديث القوم ما هو شاغله
وأزعجه علم عن الجهل كله وما عالم شيئًا كمن هو جاهله
عبوس عن الجهال حين يراهم فليس له منهم خدين يهازله
تذكر ما يبقى من العيش آجلًا فأشغله عن عاجل العيش آجله
وأخرج أيضًا من خبر القاسم بن غزوان قال: كان عمر بن عبد
العزيز يتمثل بهذه الأبيات:

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لخرقت محاجر عينيك الدموع السواجم
بل أصبحت في النوم الطويل وقد دنت إليك أمور مفضعات عظام
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٩٥.

يغرك ما يبلى وتُشغل بالهوى كما غرَّ بالذات في النوم حالم
وتُشغل فيما سوف تكره غيبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم^(١)

إيمانه بالقضاء والقدر:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر
قال: شهدت عمر يقول لحرسه: إن بي عنكم غنى، كفى بالقدر
حاجزًا وبالأجل حارسًا، ولا أطرحكم من مراتبكم ليجري لكم سنة
بعدي، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله^(٢).

وأخرج محمد بن سعد من خبر أرطاة بن المنذر قال: كان عند
عمر بن عبد العزيز نفر يسألونه أن يتحفظ في طعامه ويسألونه أن
يكون له حرس إذا صلى لئلا يثور ثائر فيقتله، ويسألونه أن يتنحى عن
الطاعون، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك. قال لهم عمر:
فأين هم؟ فلمَّا أكثروا عليه قال: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يومًا
دون القيامة فلا تؤمنن خوفي^(٣).

(١) حلية الأولياء ٣١٨/٥-٣٢٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٣.

(٢) تاريخ دمشق ٢١٩/٤٥-٢٢٠.

(٣) طبقات ابن سعد ٣٩٨/٥، وانظر حلية الأولياء ٢٩٢/٥.

وقال أبو محمد بن عبد الحكم: وكان عمر بن عبد العزيز يدعو بهذا الدعاء: اللهم رَضِّنِي بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. وكان عمر بن عبد العزيز يقول: ما برح فيَّ هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء^(١).

موقفه من الشعراء المداحين:

قال الحافظ ابن كثير: وقال الهيثم بن عدي بن عوانة بن الحكم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم، فساءهم ذلك، وهموا بالرجوع إلى بلادهم، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير:

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتهُ هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئًا، فمرَّ بهم عدي بن أرطاة فقال له جرير منشداً:

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتهُ هذا زمانك إني قد مضى زمني

(١) سيرة عمر بن العزيز/ ١١١.

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيةً أني لدا الباب كالمصفود في قرن^(١)
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرةً قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين
الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، فقال: ويحك يا
عدي، مالي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد كان
يسمع الشعر ويجزي عليه، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة
فأعطاه حلة، فقال له عمر: أتروي منها شيئاً، قال: نعم فأنشده:
رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدلساً^(٢) وأطفأت بالقرآن ناراً تضرّماً
فمن مبلغ عني النبي محمداً وكلّ امرئ يُجزي بما كان قدماً
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وكان قديماً ركنه قد تهدّماً
تعالى علواً فوق عرش إلها وكان مكان الله أعلى وأعظماً

(١) يعني كالموثق في القيد.

(٢) مدلساً: مخادعاً - كاذباً.

فقال عمر: من بالباب منهم؟ فقال: عمر بن أبي ربيعة، فقال

أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فهبت كعاباً^(١) طفلة ما تبين رجع الكلام

ساعة ثم إنها بعد قالت ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام

أعلى غير موعد جئت تسري تتخطى إلى رؤوس النيام

ما تجشمت ما تريد من الأمر ولا حيت طارقاً لخصام

فلو كان عدو الله إذا فجر كتم وستر على نفسه، لا يدخل والله

أبدًا، فمن بالباب سواه؟ قال: همام بن غالب -يعني الفرزدق- فقال

عمر: أوليس هو الذي يقول في شعره:

هما دلياني من ثمانين قامَةً كما انقض بازٍ أقتم الریش كاسره

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا أحيي [فيرجى] أم قتيل نحاذره

لا يطاء والله بساطي وهو كاذب، فمن سواه بالباب؟ قال:

الأخطل، قال: أوليس هو الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بأكل لحم الأضاحي

(١) كعاباً: هي التي نهد ثديها.

ولستُ بزاجرٍ عيسًا بكورٍ^(١) إلى بطحاء مكة للنجاح
ولستُ بزائرٍ بيتًا بعيدًا بمكة أبتغي فيه صـلاحي
ولستُ بقاتمٍ كالعير^(٢) أدعو قبيلَ الصبح حيَّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمولًا وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل علي وهو كافر أبدًا^(٣)، فهل بالباب سوى من ذكرت؟
قال: نَعَمْ الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

اللهُ بيني وبين سيدها يفرُّ مني بها وأتبعه

فما هو دون من ذكرت، فمن ههنا غيره؟ قال جميل بن معمر،

قال: الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعًا وإن نُمْتُ يوافق في الموتى خريجي خريجها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ إذا قيل [قد] سوى عَليها صفيحُها
فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحًا
ويتوب، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فهل بالباب أحد سوى ذلك؟ قلت:

(١) عيسًا: الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف.

(٢) العير الحمار.

(٣) من المعروف أن الأخطل نصراني، ولو كان مسلمًا لأقيم عليه الحد بذلك.

جرير، قال أما إنه الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان لا بد فأذن لجرير فأذن له فدخل على عمر وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمدًا جعل الخلافة للإمام العادل

وسع الخلائق عدله ووفاءه حتى ارعوى وأقام ميل المائل

إني لأرجو منك خيرًا عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

فقال له: ويحك يا جرير، اتق الله فيما تقول، ثم إن جريرًا استأذن

عمر في الإنشاد فلم يأذن له ولم ينه، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها،

فقال له: ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقًا، فقال: إني مسكين

وابن سبيل، قال: إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة

درهم، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة، فأمر له بها،

فخرج على الشعراء فقالوا: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ما يسوؤكم،

خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني

عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيًا^(١)
وهذا خبر مهم في سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، وقد
اخترته لأنه يمثل منهجًا جديدًا في ذلك العهد في معاملة الشعراء
الذين يقصدون الأمراء بشعرهم فيمدحونهم طلبًا لرفدهم، وقد كان
هذا الاتجاه مشهورًا في الجاهلية، ويدخل فيه الغلو والمبالغات
والكذب.

ولما قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية وفد على النبي ﷺ
عدد قليل جدًا من الشعراء ومدحوه بقصائدهم ووصل بعضهم
بشيء رمزي هو عبارة عن اللباس ونحوه تكريمًا لهم، وكان مدحهم
بالدرجة الأولى إشادة بالإسلام، وقد كان إقرار النبي ﷺ إياهم
لأهداف دعوية منها: أن الشعر كان له -آنذاك- دور كبير في رفع
القبائل والدول وخفضها، فكان النبي ﷺ يقصد من إقرارهم
وتكريمهم أن يرفعوا بشعرهم سمعة دولة الإسلام، وذلك نوع من
الجهاد الذي كان يحارب به النبي ﷺ أعداءه، ولقد أدرك كفار مكة

(١) البداية والنهاية ٩/٢٧٣-٢٧٥

خطورة ذلك عليهم فمنعوا الأعشى، الشاعر المشهور، من الوفاة على النبي ﷺ ومدحه بقصيدته المشهورة .

ومنها أنه كان ﷺ يتألف بذلك أولئك الشعراء ليدخلوا في الإسلام، أو ليثبتوا عليه إن كانوا قد أسلموا.

ولقد انقطع هؤلاء الشعراء حينما عزت دولة الإسلام ولم يعد هناك حاجة لتألف البارزين من العرب إلى الإسلام، وقد أنكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد -رضي الله عنهما- حينما قصده الأشعث بن قيس.

ثم عاد الشعراء في عهد بني أمية إلى انتجاع الأمراء ومدحهم وبالغوا في ذلك كثيرًا، إلى أن تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقصدوه كما كانوا يقصدون من قبله من الأمراء، فكان له هذا الموقف الإسلامي النبيل المذكور في هذا الخبر.

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يدرك المقاصد الدعوية التي من أجلها أقر النبي ﷺ الشعراء الذين وفدوا عليه، ويعلم أن تلك المقاصد قد انتهت وخلفها مقاصد دنيوية تُفسد بنية المجتمع، وتشجع

على سيادة الأخلاق السيئة، من الكذب والتَّغْيِير والنفاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته.

وقد دل هذا الخبر على أن عمر بن عبد العزيز كان ضليعاً في الأدب حافظاً للشعر، وإن سرعة إدراكه لسوءات أولئك الشعراء الواقفين على بابه وروايته شيئاً من أشعارهم التي انحطوا فيها دليل على غزارة حفظه وتمييزه بين جودة المقاصد الشعرية ورداءتها.

ولقد كان إذنه لأحد أولئك الشعراء بالدخول عليه وهو جرير اليربوعي التميمي من أجل أن يكون رسولاً إلى الشعراء لإعلامهم بالمنهج الإسلامي الذي يسير عليه عمر بن عبدالعزيز، ولقد أدى هذه الرسالة حيث غادر أولئك الشعراء باب أمير المؤمنين ولم يعودوا، ولقد كان اختيار جرير لأنه أقرب أولئك الموجودين إلى التقوى. ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين.

اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى :

الناظر إلى سيرة عمر بن عبد العزيز من حيث اهتمامه الكبير المتواصل في إصلاح دولة الإسلام من داخلها يظن أنه قد أوقف جهاد الأعداء لشغله أكثر وقته وفكره في إصلاحاته الداخلية، خصوصًا مع معرفة اهتمامه بإعادة جيش مسلمة من القسطنطينية، ولكننا نراه مع قيامه بتلك الإصلاحات الكبيرة قد اهتم بجهاد الأعداء ولكن بأسلوب يضمن أكبر قدر ممكن من سلامة جنود الإسلام، وقد رُويت في ذلك أخبار منها ما ذكر الإمام الطبري بقوله: وفي هذه السنة -يعني سنة مائة- أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص الصائفة^(١). ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر خالد بن ربيعة عن أبيه قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إذا دخلت الصائفة فلا تترك أحدًا يدخل في أثرهم إلا في قوة وجماعة من الرجال والخيول والعدد^(٢). وكذلك ما أخرجه من خبر صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب

(١) تاريخ الطبري ٥٥٦/٦، والصائفة هي الحملة العسكرية التي تخرج في الصيف.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٥٣/٥

عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصناً من
حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن
قبلوا فاكفف عنهم، وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء.
وأخرج أيضاً من خبر المنذر بن عبيد قال: كتب إليَّ عمر بن
عبد العزيز في الذمي يغزو مع المسلمين فيؤمن العدو، فكتب: لا يجوز
أمانه، وقال: إنما قال رسول الله ﷺ: يجير على المسلمين أدناهم وهذا
ليس بمسلم^(١).

* * *

(١) طبقات ابن سعد ٣٥٣/٥

اهتمامه بمكارم الأخلاق

نفوره من الاتهام بالكذب:

نجد من مواقف عمر بن عبد العزيز، تقديره البالغ لمكارم الأخلاق، وغضبه واشمئزازه من مساوئها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمر خرج مع سليمان بن عبد الملك يريد الصائفة^(١). فالتقى غلمانه وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا، فضرب غلمان عمر غلمان سليمان، فشكوا ذلك إلى سليمان، فارسل إلى عمر فقال له: ضرب غلمانك غلماني، قال: ما علمت، فقال له سليمان: كذبت، قال: ما كذبت مذ شددت عليّ إزارني وعلمتُ أن الكذب يُضُرُّ أهله، وإن في الأرض عن مجلسك هذا لَسعة، فتجهز يريد مصر، فبلغ ذلك سليمان فشَقَّ عليه فدخلت فيما بينهما عمة لهما، فقال لها سليمان: قولي له يدخل عليّ ولا يعاتبني، فدخل عليه عمر فاعتذر إليه سليمان، وقال له: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكرمني أمر إلا

(١) يعني الجهاد في الصيف، وكانوا لشدة البرد في بلاد الروم يخرجون صيفًا غالبًا.

خطرت فيه على بالي، فأقام^(١).

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر إحساسًا إسلاميًا رفيعًا وإدراكًا بالغًا لخطورة الكذب ومهانة مرتكبيه، فالمؤمن الحق قد يتعرض لبعض الذنوب التي منها ارتكاب الظلم ولكنه لا يمكن أبدًا أن يكذب لأن الكذب يتنافى مع الإيمان كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مالك عن صفوان بن سليم أنه قال قيل لرسول الله ﷺ: «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟» فقال: نعم، فقيل له: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فقال: نعم، فقيل له: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟ فقال: لا^(٢).

ونظرًا لخطورة الاتهام بالكذب وما يحدثه في نفس المؤمن الواعي من فزع وهول فإننا نجد عمر بن عبد العزيز قد فزع كثيرًا حينما اتهمه سليمان بن عبد الملك بالكذب، ونفى عن نفسه بسرعة أن يكون قد قارف الكذب من حين بلوغه سنَّ التمييز، وأنه قد أدرك في تلك السنَّ المبكرة خطورة الكذب فحمى نفسه من الوقوع فيه، وبلغ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧-٢٨، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٩.

(٢) موطأ مالك، كتاب الكلام، رقم ٢ / ٩٩٠.

فزرعه من هذه التهمة وتأثره بها إلى حد العزم على مغادرة الشام إلى مصر، لمفارقة البلد الذي اتُّهم فيه بهذه التهمة الفظيعة.

والكذب يعدُّ ضعفًا في النفس، وجبنًا عن المواجهة، ولذلك نجد بعض الكبراء يُنزهون أنفسهم منه لا من منطلق منافاته للإيمان، وإنما من منطلق تعارضه مع الرجولة الكاملة وكونه من صفات النقص والضعف، فنجد الحجاج بن يوسف مثلاً يقول لأحد كتابه: ما يقول الناس فيّ؟ فاستعفاه فلم يُعَفِّه، قال: يقولون إنك ظلم غشوم قتال عسوف كذاب، قال: كل ما قالوا فقد صدقوا فيه إلا الكذب فوالله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله^(١).

من أمثلة تواضعه:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال: رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى المكتوبة انصرف إلى أهله لا يتطوع^(٢)، وربما جلس فجاء الغريب الذي لا يعرفه، وكان يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة يسأل عن أمير المؤمنين

(١) هامش سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٨.

(٢) أي لا يصلي السنة الراتبية في المسجد وإنما يصلها في البيت لكون ذلك أفضل.

وفي أي حلقة هو! فيقف لا يدري أيهم حتى يشار إليه: هذا أمير المؤمنين، فيسلم عليه بالخلافة^(١).

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: كان عمر بن عبد العزيز يجلس إلى قاصّ العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة تمسك بيدها، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويدها في ثيابه، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه، وجلس بين يديها، وما ترك لها حاجة إلا قضاها^(٢).

وقال أبو محمد عبد الله بن الحكم: وناداه رجلٌ فقال: يا خليفة الله في الأرض. فقال له عمر: مَهْ إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا فسَمَّوني عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتك. فلما كبرت اخترت لنفسِي الكُني فكنيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك. فلما وليتُموني أموركُم سميتُموني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أمير المؤمنين

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٠-٢١١.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦.

أجبتك. وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهه قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]^(١).

جوابه لمن اتهمه بالكبر:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قال له: إن فيك كبراً وأنت تتكبر، فقل ذلك له: فقال عمر: لبئس ما ظننت إن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه. الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازعه إياه، ولكن كنت غلاماً بين الغلمان -أو قال بين ظهري قومي- يدخلون عليّ يغير إذن ويتوطؤون فرشي ويتناولون مني ما يتناول القوم من أخيهم الذي لا سلطان له عليهم. فلما أن وليت خیرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أمتنع في بابي ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٤.

كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذي دعاني إلى هذا^(١).

وهكذا اتُّهم هذا الولي الصالح والحاكم العادل بالكبر، وإنه لعجيب جداً أن يُظنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خَلَفَ الدنيا بجاهها ومالها وراء ظهره، ولكن الذين ليست لديهم تجارب إدارية يعتقدون أن المسؤول يجب أن يكون بابه مفتوحاً للناس في جميع الأوقات، ولا يعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيراً من أمور الأمة المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن، كما أن المسؤول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب عن عامة الناس بعض الوقت.

مثل من حلمه على من جهل عليه :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوزاعي: أن عمر ابن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٨.

كراهية أن يعجل في أول غضبه.

قال: وأسمعه رجل كلامًا فقال له: أردت أن يستفزني الشيطان
فأنال منك اليوم بما تناله أنت مني يوم القيامة، انصرف عني عافاك
الله ورحمك^(١).

وقوله « أردت أن يستفزني الشيطان » إدراك منه لسلاح من
أسلحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسؤولية، فيحملهم على
السلوك المنافي لمكارم الأخلاق .

مثل آخر من حلمه :

ومن أمثلة تخلقه بخلق الحلم ما أخرجه محمد بن سعد من خبر
عمر بن حفص قال: حدثنا شيخ قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز
بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسى فدخل المسجد فمرّ في الظلمة
برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه إليه فقال: أجمنون أنت؟ قال: لا، فهمّ

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٠٥ - ٢٠٦، وانظر البداية والنهاية ٩ / ٢٠١ وسيرة عمر بن عبد

العزيز لابن الجوزي / ١٥١.

به الحرسي، فقال له عمر: مَهْ إنما سألني أمجنون أنت فقلت لا^(١).
وهكذا يمثل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد
بلغ القمة في الجاه الدنيوي، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض،
ومع ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب
ذلك الرجل.

عفوه عن الذي شجّه في وجهه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك
قال: وقام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار،
قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يجبس دونه فرماه
بالطومار، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه فشجّه، فنظرت إلى
الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس، فقرأ الكتاب وأمر له
بحاجته وخلي سبيله!!^(٢).

وهذا مثال عالٍ في الاتصاف بالحلم والصبر على الأذى والعفو

(١) الطبقات الكبرى ٣٩٧/٥، وانظر تاريخ دمشق ٢٠٦/٤٥، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١.

(٢) حلية الأولياء ٣١١/٥، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠-١٥١، والطومار هو نوع من الورق، ويفهم من الخبر أنه ورق سميك .

عند المقدرة، لقد كان عمر بن عبد العزيز رجلاً عظيماً مثل مكارم الأخلاق في حياته، ولو أنه انتقم من ذلك الرجل أو على الأقل لم يلتفت إلى تحقيق طلبه لكان رجلاً عادياً ولما خلد التاريخ له هذا الموقف الكبير، لقد كان يهين نفسه ويضغط عليها في سبيل تمثيل القيم السامية وتخليد المواقف العالية.

مثل من عفوه عند الغضب:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوماً على رجل غضباً شديداً فبعث إليه فجرده ومدّه في الحبال، ثم عاد بالسياط حتى قلنا: هو ضاربه، قال: خلوا سبيله، أما إني لولا أني غضبان لسؤتك، وقرأ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]^(١). فهذا الرجل قد أغضب بجهله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولكنه وسعه بحلمه، والحلم عند جهل الجاهلين من مكارم الأخلاق العالية.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥٠.

ونجده- رحمه الله يتذكر الآخرة حالا فيبين أن النزول إلى مستوى الجاهلين ينزل من درجات المسلم في الآخرة، بينما تكون عاقبة الصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً»^(١).

مثل من رحمته بالمجاهدين:

ذكر ابن عبد الحكم أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفتح خلافته بثلاثة كتب، ذكر منها هذا الكتاب حيث قال: كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برًا وبحرًا وأشفى على فتحها، ثم خدع عنها حتى أحرزوا طعامهم وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها، فبلغ ذلك سليمان فغضب مما فعل به فحلف أن لا يقفله منها ما دام حيًّا، فاشتدَّ عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدوابَّ من الجهد والجوع حتى يتنحى الرجل عن دابَّته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابة كذا وكذا درهمًا.

(١) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠، كتاب الادب باب ٨، والزعيم هو الضامن، وربض الجنة

يعني طرفها، والمراء هو الجدل والنزاع.

ولجَّ سليمان في أمرهم. فكان ذلك يغمُّ عمر فلما وليَ رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئاً من أمور المسلمين ثم يؤخر قفلهم ساعةً فذلك الذي حمّله على تعجيل الكتاب^(١).

في هذا الخبر مثل من آثار الجبروت الذي يعشش في أفكار الطغاة فيتناسون - في إصدار القرارات الطائشة - فضل أهل البلاء ومصالح الآلاف من المسلمين، فمَسَلَمَة بن عبد الملك قائد عظيم انتصر على الروم في لقاءات حربية كثيرة وفتح كثيراً من البلاد والحصون، فلما أخطأ في ذلك الموقف وصدّق ملك الروم الذي كان سابقاً مع المسلمين وانخدع بكلامه نسي سليمان بن عبد الملك كل ماله من سوابق عالية وبالع في عقوبته ولجَّ في تمسكه برأيه الجامح، ولم يحسب حساباً لآلاف المسلمين الذين كانوا معه، لأن الطغاة لا يُلقون بالاً لأفراد الشعوب فليمتُّ أفراد ذلك الجيش من الجوع ولتفتك بهم الأمراض في سبيل تنفيذ شهوة غضبية.

لقد كان سليمان بن عبد الملك يريد أن ينال حظوة فتح

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧.

القسطنطينية ليغذي ما في نفسه من حب الشرف، فأصمَّ أذنيه -قبل
مسير ذلك الجيش - عن سماع رأي القادة الكبار من أمثال موسى بن
نصير، وأغلق فكره عن قبول تخطيطهم الحربي الذي يقتضي فتح ما
بين القسطنطينية وبلاد الإسلام بالكامل واستيطانها من المسلمين. لم
يقبل هذا الرأي لأنه يحتاج إلى عدة سنوات، وهو يريد الفتح بصورة
عاجلة لأنه لا يضمن بقاءه على قيد الحياة حتى يتم هذا الأمر، ولا
يريد أن يكون شرف الفتح لمن يأتي بعده، فلما استعصى الفتح بسبب
نفاد المؤن لجَّ في رأيه وحبس مسلمة وجيشه في بلاد الأعداء، فكان
حل تلك المشكلة وتفريج كربة أولئك المسلمين على يد الخليفة العادل
عمر بن عبد العزيز فكتب ذلك الكتاب الذي يأمر فيه بعودة ذلك
الجيش.

فما هي النتيجة المترتبة على تصرف هذين الخليفين؟ وما هي
المشاعر التي سيحملها أفراد ذلك الجيش لهما؟

إنهم سيحملون البغض الشديد لسليمان والموجدة الأكيدة عليه
لتلك الإساءة، وسيحملون الحب الشديد لعمر بن عبد العزيز والثناء

البالغ عليه لذلك الإحسان الذي قدّمه لهم.

رحمته بالأسرى:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فاد أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع ما لهم^(١).

وهذه صفحة من صفحات عمر بن عبد العزيز في الرحمة وتقدير أهل الفضل الذين بذلوا أنفسهم في حماية الإسلام والدعوة إليه، فوقعوا أسرى في يد أعدائهم، فهو يُقدّم فداءهم على كل المطالب التي تتطلب الصرف من بيت مال المسلمين، وهكذا كان عمر بن عبد العزيز مكماً لنقص الولاة الذين سبقوه وساداً لخللهم، وقد فرّج الله تعالى به عن أسرى المسمين وأدخل به البهجة والسرور على أسرهم الذين كانوا ينتظرون قدومهم بفارغ الصبر.

مثل من رحمته بالأيّام:

قال الحافظ ابن كثير: وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٢.

الغلمان فشجه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مُرِيَّة تقول: إنه ابني وإنه يتيم، فقال لها عمر: هوني عليك، ثم قال لها عمر: أله عطاء في الديوان؟ قالت: لا قال: فاكتبوه في الذرية، فقالت زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شجَّ ابنك؟ فعل الله به وفعل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية، فقال: ويحك إنه يتيم وقد أفزعتموه!^(١).

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد أبنائه، ويحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفرع الذي حصل له، فما أبلغ رحمة عمر، وما أرق مشاعره، وما أسمى تفكيره في معاملة إخوانه المسلمين!!

مثل من رحمته بالخدم :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة: ما أكمل مروءة أبيك، سمريت عنده ذات ليلة فعشى السراج فقال لي ما ترى السراج قد

(١) البداية والنهاية ٢٠٢/٩، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠.

عشى؟ قلت: بلى، وإلى جانبه وصيف راقد، قال قلت: ألا أنبهه؟
قال: لا دعه يرقد^(١)، قال: قلت: أفلا أقوم أنا؟ قال: لا ليس من مروءة
الرجل استخدام ضيفه، قال: فوضع رداءه ثم قام إلى بطة زيت معلقة
فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع، قال: قمت
وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز^(٢).

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها.
فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم، ويؤثر إكرام
الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على
وجه الأرض آنذاك، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء، ولا
يتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره
وجهدده ووقته.

رحمته بجارية له :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر النضر بن سهيل عن أبيه قال:

(١) وفي رواية ابن كثير ((لا أحب أن أجمع عليه عملين))، والوصيف الغلام دون المراهقة -

معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/٢٢٥-٢٢٦، وانظر الزهد للإمام أحمد/ ٢٩٨، والبداية والنهاية

٢٠٣/٩.

قال عمر بن عبد العزيز لجارية له: يا جارية روحيني، فأقبلت تروحه فغلبتها عينها فنامت، فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرِّ ما أصابني، وأحببت أن أروحك مثل الذي روحتني^(١).

مثل من رحمته بأهل الذمة:

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال: قُرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمُر حميمه ينفق عليه، وقاصِّه من خراج^(٢) كما لو كان لك عبد فكبرت سنُّه لم يكن لك بُد من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق^(٣).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦.

(٢) أي حُطَّ عن صديقه من خراج ما أنفق عليه، والخراج ما يؤخذ سنوياً من أصحاب الأراضي الزراعية - معجم الألفاظ التاريخية - .

(٣) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٨٠.

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه، وهو كذلك شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله، فالذمي الذي يفتقر لا يضيع في دار الإسلام، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين، وهي لا ترجو منه نفعًا ولا دفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام.

مثل من رحمته بالحيوان:

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان، بل شملت الحيوان الأعجم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلاً نَقَّالات، يُحْمَل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاكَ كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل^(١).

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال: كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٠-١٥١.

له، يأتيه بدرهم كل يوم، فجاءه يوماً بدرهم ونصف، فقال: ما بدا
لك؟ فقال نفقت السوق، قال: لا ولكنك أتعبت البغل، أرجه ثلاثة
أيام^(١).

* * *

(١) المرجع السابق ١٥٣/٤٥، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٠.

مواقفه في الزهد والورع والخشية

خبر بدء إنابته :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن كثير قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان بُدُّوْ إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي: يا عمر اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة^(١). فهذه موعظة صادفت قلباً مهيناً لها فتمكنت منه، وكانت سبباً في يقظة عمر بن عبد العزيز وإنابته.

خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فأصابهم ليلة برق ورعد، فكادت تنخلع أفئدتهم، فقال سليمان: يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها؟! قال: يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟!^(٢). فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠.

للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها.

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك:

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ما ذكر ابن عبد الحكم قال: وخرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدّم فيه ثقلاً، فبلغ المنزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدّمه، وصار سليمان إلى حجرة، ثم فقد عمر فقال: اطلبوه فما أراه قدّم شيئاً، فطلب فوجد تحت شجرة باكيّاً، فأخبر بذلك سليمان فدعاه فقال: ما يبكيك يا أبا حفص؟ قال: أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة، من قدّم شيئاً وجده، ولم أقدم شيئاً فلم أجد شيئاً^(١).

وهكذا رأينا مثالا للوعي الدقيق والتذكّر البليغ لأهوال يوم القيامة وأسباب النجاة فيه، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخرج معه متاعاً ذهب كل إنسان بما أعد لنفسه، وبقي عمر بدون شيء، وكان بإمكانه أن يطلب من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ما يشاء

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن

الجوزي / ٦٤.

وهو الأثير عنده، ولكن غلب عليه تذكر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه
وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا.

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكير، فإذا وقع الإنسان
منهم في عسر وشدة تذكر شدائد يوم القيامة، فشغله التفكير فيها عن
التألم لوضعه الحاضر في الدنيا.

وإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعيم الآخرة فزهد في
الدنيا، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جل وعلا.

خبره مع الغراب وما فيه من العبر:

قال الحافظ ابن كثير: وقال عثمان بن زبر: أقبل سليمان بن عبد
الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان
وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان:
ما تقول يا عمر في هذا؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت
المسؤول عن ذلك كله، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ
لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبه، فقال له
سليمان: ما هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري، فقال ما ظنك أنه يقول؟

قلت: كأنه يقول: من أين جاءت وأين يُذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك!! فقال عمر: أعجب ممن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها^(١).

ونجد في هذا الخبر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كان معجباً بحكمة عمر بن عبد العزيز وتأملاته العميقة في أمور الدنيا وربطها بأمور الآخرة.

ونجد عمر عبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاستقامة على أمور الدين وتذكُّر الحياة الآخرة، فهو حينما سأله سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقمة اغتنم الفرصة ليدكره بلزوم الاستقامة في كسب الأموال وإنفاقها، وإذا ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرزق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف والخيلاء. وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠.

رضوان الله تعالى والجنة، بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل
الأخروي، لمن استقام على ذلك ولمن انحرف عنه.

خشيتته من العذاب بالريح

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبي مطيع
قال: نبئت أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح، فدخل عليه
رجل فإذا هو منتقع اللون فقيل له: يا أمير المؤمنين مالك، قال:
ويحك، وهل هلكت أمة قط إلا من الريح^(١).

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولا تثير في أنفسهم شيئاً
من الخشية لاعتيادهم عليها، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على
الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثراً شديداً من ذلك،
وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيته من الله تعالى.

خشيتته من ارتكاب السيئات في مكة

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الملاء من خبر القاسم بن
محمد بن أبي بكر أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين

(١) حلية الأولياء / ٥ / ٣١٣.

ويخرج في الثالث، فقال له عبد الله بن عمر بن عيسى بن عمار: لو أقمت فاستمتعت بهذا البيت واستمتعتنا معك!! فقال: ما أظن أحداً منكم أشد حُباً لهذا البيت مني ولكن والله لكأني على الرَّضْف^(١) من حين أدخله إلى حين أخرج فرقاً من أن أحدث.

قال: وهذا حينما كان والياً على المدينة زمن الوليد^(٢).

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها، على الرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات.

زهده في مظاهر الخلافة:

من مواقفه التي جرت منه بعدما بويع بالخلافة، انصرافه عن مظاهر الدنيا وتحكيمة للكتاب والسنة في دقيق الأمور وجليلها، قال ابن عبد الحكم رحمه الله: ولما دُفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز

(١) أي الحجارة المحماة.

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٧.

فقرَّبَتْ إليه المراكب قال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم ضمَّ هذا إلى بيت مال المسلمين، ونُصبت له سرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يَلُون، فقال: ما هذه؟ فقالوا: سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال: يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يُفْضي إلى الحَصِير، ثم قال: يا مزاحم ضمَّ هذا لأموال المسلمين.

قال: وبات عيال سليمان يُفَرِّغون الأدهان والطيب هذه القارورة إلى هذه القارورة، ويلبسون ما لم يُلبَس من الثياب حتى تتكسر، وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو مُسَّ من الطيب كان لولده، وما لم يُلبس من الثياب وما لم يُمَسَّ من الطيب فهو للخليفة بعده، فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان: هذا لك وهذا لنا، قال: وما هذا وما هذا؟ قالوا: هذا ما لبس الخليفة من الثياب ومس

من الطيب فهو لولده، وما لم يمَسَّ ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك، قال عمر: ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين، ففعل.

فتوامر الوزراء فيما بينهم فقالوا: أما المراكب والسراقات والحجر والشوار^(١) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم، وبقيت خصلة وهو الجواري نعرضهن عليه، فعسى أن يكون ما تريدون فيهن، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده، فأُتي بالجواري فعُرضن عليه كأمثال الدُّمى، فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة: من أنت ولمن كنت ومن بعث بك؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت، فيأمر بردهن إلى أهليهن، ويُحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن، فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق^(٢).

وهكذا رأينا مشهداً من العادات السيئة والمظاهر الدنيوية التي

(١) يعني اللباس والزينة ومتاع البيت.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٨-٤٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٤٢.

توارثها الأمراء قبل عمر بن عبد العزيز وأصبحت تتراكم شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى حد لا يختلف كثيراً في الأبهة والتعظيم عما كان عليه ملوك فارس والروم، وكان الأمراء يرون في تلك المظاهر تثبيتاً لحكمهم وتعظيماً لهيبة السلطان في نفوس الرعية.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز رأى أن قيمة تلك المظاهر أخذت من بيت مال المسلمين بدون حق، إلى جانب كونها تنطلق من خلق الكبر الذي جاء ذمه في الإسلام، وتتنافى مع خلق التواضع الذي جاء مدحه في الإسلام، فأمر مولاه مزاحماً بأن يُدخلها في بيت مال المسلمين، وركب مركبه السابق الذي لا يميزه عن عامة المسلمين وأوساطهم.

وفي هذا الخبر تبين لنا كيف كان الولاة يتصرفون بأموال المسلمين بغير حق، ويبتكرون عوائد من الحقوق الخاصة بالوالي الذاهب والوالي القادم في أموال ليس لهم حق التصرف فيها.

وفي تصرف عمر إزاء ذلك مثل واضح على عدله ورعايته لحقوق المسلمين العامة حيث رد تلك الأطياب والملابس إلى بيت مال

المسلمين، وبَيَّن أنه ليس له حق فيها ولا للأُمير الذي قبله وأن هذه العادة مخالفة للإسلام.

كما أن في هذا الخبر دلالة على رعاية عمر للحقوق الخاصة، فتلك الجوارى التي كانت تساق كالذُمى، وقد حُرِّم من المطالبة بحقوقهن، واعتُبرن من جملة المتاع الذي يرثه الأمراء خلفاً عن سلف قد نظر في أمرهن من ناحية الشرع فلما تحقق أنهن أُخذن بطريقة غير مشروعة أعادهن إلى أهاليهن .

ونجد في هذا الخبر مثلاً من تفكير أصحاب النفوذ ممن ألفوا تلك المظاهر والعوائد حيث أرادوا اختبار عمر بالجوارى لما ردَّ الفرش والأثاث والبيوت لأن داعي الاحتفاظ بالجوارى أقوى لدى النفوس التي لا تلتزم في سيرها بهدي الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة ، فلما ردَّ الجوارى أيسوا منه وعرفوا أنه سيحمل الناس على الحق الذي يعرفونه ولكن يمنعهم من العمل به اتباع الهوى المنحرف.

زهده في مناصبات الخلافة:

من مواقف عمر بن عبد العزيز في الورع ما ذكره ابن عبد الحكم

قال: وكان عمر قد طلق نفسه من الفئ فلم يُرزق منه شيئاً إلا عطاءً مع المسلمين، فدخل عليه ابن أبي زكريا فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بشيء، قال: قل، قال: قد بلغني أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار، قال: نعم، قال: ولم ذلك؟ قال: أردت أن أغنيهم عن الخيانة، قال: فأنت يا أمير المؤمنين أولى بذلك، قال: فأخرج ذراعه وقال: يا ابن أبي زكريا إن هذا نبت من الفئ ولست معيداً إليه منه شيئاً أبداً^(١).

وهكذا حرم عمر نفسه من الأجر الذي يعطيه للولاء تورعاً، ولو سوى نفسه بهم لم ينكر عليه أحد، بل لو زاد عنهم قليلاً مقابل كثرة نفقته لمنصبه لما كان ذلك منكراً، ولكنه تورع عن ذلك، وكان تذكره للتجاوز الذي كان من ولاية عشيرته مانعاً له حتى من أخذ حقه في بيت المال فرحمه الله رحمة واسعة.

مثل من طموحه نحو المعالي:

أخرج محمد بن سعد من خبر سعيد بن عامر عن جويرية بن

(١) طبقات ابن سعد ٥/٤٠١، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/٢٠٨.

أسماء قال: قال عمر بن عبد العزيز: إن نفسي هذه نفس تواقة، وإنها لم تعط شيئاً إلا تآقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أُعطيَت الذي لا شيء أفضل منه في الدنيا تآقت إلى ما هو أفضل من ذلك.

قال سعيد: الجنة أفضل من الخلاقة^(١).

فهذه المقارنة تبين لنا عظمة عمر بن عبد العزيز ورجاحة عقله وسمو تفكيره، فإن أعلى منزلة في الدنيا لا تعادل أدنى منزلة في الجنة، فمن ضيع منازل الجنة بالحرص على منازل الدنيا كان من الخاسرين.

ورعه عما حمل على دواب البريد:

قال ابن عبد الحكم في رواية له: وأتت إليه سلتا رُطَب من الأردن، فقال: ما هذا؟ قالوا: رطب بعث به أمير الأردن، قال: علام جيء به؟ قالوا: على دواب البريد، قال: فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين، أخرجوهما فبيعهوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد، فغمزني^(٢) ابن أخيه فقال لي: اذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما عليّ، فجئت بهما إلى ابن أخيه فقال: اذهب بهذه الواحدة إلى

(١) طبقات ابن سعد (٤٠١/٥)، وانظر تاريخ دمشق (٢٠٨/٤٥).

(٢) القائل هو راوي الخبر أبو شيبان وهو الذي قدم بالرطب.

أمير المؤمنين، وحبس لنفسه واحدة، فأتيته بها فقال: ما هذا؟ قلت:
اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى،
قال: الآن طاب لي أكله^(١).

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام
فإن فكر المسلم العادي لا يذهب إلى السؤال عن الدواب التي تحمل
عليها الطعام، وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري، ومع
أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعاً، وأمر بجعل
ثمنه علفاً لدواب البريد، وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف
الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه، فما أعظم
الإسلام متمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين
الحلال الخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام!

رده أحد أملاكه من الإقطاع:

من مواقفه رحمه الله في الورع ما حدث به الإمام عبد الله بن
المبارك رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم - وكان

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن
الجوزي / ١٣٣ .

مزاحم مولاه وكان فاضلاً - قال: إن هؤلاء القوم - يعني أهله -
أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني، وإني قد هممت
بردها على أربابها قال فقال مزاحم: فكيف تصنع بولدك؟ قال:
فَجَرْتُ دموعه على وجنته وجعل يمسحها بأصبعه الوسطى ويقول:
أَكِلْهُمْ إِلَى اللَّهِ، قال عبد الله: وكأن مزاحماً - مع فضله - لم يقنع بقوله:
فخرج مزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، فقال: إن
أمير المؤمنين قد همَّ بأمر هُوَ أَضُرُّ عَلَيْكَ وعلى ولد أبيك من كذا
وكذا، إنه همَّ بِرَدِّ السهلة - قال عبد الله: وهي باليامة^(١) وهي أمر
عظيم - قال: وكان عيش ولده منها، قال عبد الملك: فماذا قلت له؟
قال كذا وكذا، قال: بئس لعمر الله وزير الخليفة أنت، ثم قام ليدخل
على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله، قال: فاستأذن فقال له
البواب: إنه قد تبوأ مقيله، قال: ما منه بد، قال: سبحان الله ألا
ترحمونه! إنما هي ساعته، قال: فسمع عمر صوته فقال: عبد الملك؟
قال: نعم، قال: ادخل، فدخل، قال: ما جاء بك؟ قال: إن مزاحماً

(١) اليامة بلاد تقع في منطقة نجد في وسط السعودية .

أخبرني بكذا وكذا، قال: فما رأيك فإني أريد أن أقوم بالعشية؟ قال: أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثًا، قال: فرفع يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني، قال: ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها^(١).

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذي سبقوه تخرج من بقائها في ملكه، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك، فلم ير أن له حقًا في الاختصاص بملكها، فردها إلى بيت مال المسلمين، مع ما ذكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق.

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ورعًا تقيًا كأبيه، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عونًا لأبيه في حمل الناس على الاستقامة، خاصة فيما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٩-٩٠.

مقدار ما رده من ماله لبيت المال:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: دعاني أبو جعفر^(١) فقال: كم كانت غلة عمر حين أفضت إليه الخلافة؟ قلت: خمسون ألف دينار، فقال: كم كانت يوم مات؟ قلت: ما زال يردها حتى كانت غلته مائتي دينار، ولو بقي لردها^(٢).

وإذا كانت غلة أملاكه خمسين ألف دينار فكم هي قيمتها؟! إنها مبلغ كبير، ومع ذلك عفا عنه ورده إلى بيت مال المسلمين، فخلد بذلك ذكره في الدنيا إلى جانب ما يرجوه من الدرجات العلى في الآخرة.

مثل تورعه عن مال المسلمين:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يزيد بن أبي حبيب قال: وقيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أنك أخذت كما يأخذ عمر بن الخطاب، يأخذ درهمين كل يوم، قال: إن عمر لم يكن له مال،

(١) هو أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور.

(٢) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٠.

وأنا لي مال يغنيني عن ذلك، ورد عمر بن عبد العزيز في بيت المال ما كان أعطاه سليمان والخلفاء قبله^(١).

استجابة دعائه في ابنه الصغير:

من مواقفه أيضًا في الورع رحمه الله ما قام به من رد أمواله التي شك في أصل اكتسابها إلى بيت مال المسلمين، وفي ذلك يقول: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء^(٢) فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط فعملتها من صلب عطائي الذي يُجمع لي مع جماعة المسلمين، فجاءته غلتها مائتا دينار، وجراب فيه تمر صيحاني وتمر عجوة، فقال: هات أصبب للقوم من هذه العجوة فهي أبرد وأصح.

وهكذا رد عمر أمواله إلى بيت مال المسلمين لاعتقاده بأن أصلها من مال المسلمين العام، وأن الولاة الذين سبقوه أعطوه إياها بغير حق لأنهم لم يعطوا سائر المسلمين مثلها ما عدا ذلك البستان الذي ذكر في السويداء حيث كان من عطائه الذي يأخذ مثله أي فرد

(١) تاريخ دمشق ٢١٢/٤٥.

(٢) السويداء قرية بحوران من نواحي دمشق - معجم البلدان ٣/٣٢٥ - .

من المسلمين، فأصبح يأكل من غلته القليلة وهو قرير العين لأن أصله حلال ليس فيه شبهة.

وجاء في سياق هذه الرواية (قال: وسمع النساء بهال قد قدم عليه فأرسلن إليه بابل له غلام ليعطيه من ذلك المال، فلما جاء الغلام قال: احفنوا له من ذلك التمر، فحفنوا له من ذلك، فخرج الغلام فرحاً حتى إذا انتهى إلى النساء فرأين التمر ضربن الغلام، ثم قلن له: اذهب فانثره بين يديه، فأقبل الغلام فثره بين يديه وأهوى بيديه إلى الذهب، فقال عمر للوليد بن هشام من آل أبي معيط: أمسك يديه يا وليد، فأمسك يديه الوليد، ودعا عمر بدعاء له كثير، وكان من دعائه: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، بَغْضٍ إلى هذا الغلام هذا الذهب كما حَبَّبْتَهَا إلى فلان بن فلان، أرسل يديه يا وليد، فارتعشت يداه فما مس منها ديناراً وانصرف، فقال له رجل: لقد استجيبت لك يا أمير المؤمنين، ثم قال عمر: أخرجوا زكاة هذه المائتي دينار^(١) فقال

(١) يعني غلة بستانه.

الرسول: يا أمير المؤمنين لقد أخذ خرص هذا الحائط، قال: يا بني ليس هذا من عملك، قال: فأخرجوا خمسة دنانير، ثم قال: دلوني على رجل أعمى ليس له قائد، قال: بينما القوم يتذكرون، قال عمر: لقد وقعت عليه وقد ذكرته وهو الشيخ الجزري الأعمى، يأتي في الليلة المظلمة الماطرة ليس له قائد، أخرجوا له ثمن قائد، لا كبير يقهره ولا صغير يضعف عنه، قال: فأخرجوا له منها خمسة وثلاثين دينارًا قال: ثم دعا عمر بالذي يقوم على نفقة أهله فقال: خذ هذه الذهب فأنفقها على عيالنا إلى أن يخرج عطائي مع المسلمين أو يقضي الله قبل ذلك^(١).

وفي هذا الخبر رأينا فزع عمر حينما جاء ولده الصغير فرمى بالتمر وأخذ الذهب ودعا الله تعالى أن يبغض إليه الذهب فارتعشت يدا الولد، ولم يمس منها دينارًا، وهكذا استجاب الله تعالى دعوة ذلك الإمام العادل في الحال، وهذا دليل على قربه من الله تعالى وصلاحه. ونجد عمر في هذا الخبر مع شدة احتياجه للمال وقلة غلة بستانه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٧، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩١.

ينفق منها خمسة وثلاثين دينارًا أجرًا لقائدٍ خصصه لرجل أعمى.
فما أعظم عمر بن عبد العزيز! وما أشد إحساسه بحاجات
الناس!

أمثلة من تحريره في ملكية الجواري:

من ذلك خبر الجارية التي أهدتها إليه زوجته فاطمة بنت عبد
الملك، فقال للجارية: لمن كنت؟ قالت: وهبني عبد الملك لفاطمة،
قال: فلمن كنت قبل عبد الملك؟ قالت: كنت لقوم بالبصرة فأخذ
عاملها أموالهم، فكنت فيمن أخذه، فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني
لفاطمة، فدعا عمر بالبريد فكتب إلى عامل البصرة فأمره بردها إلى
أهلها^(١).

فهذا مثل من أمثلة بعده عن شهوات الدنيا، وتحريره عن مصادر
الأموال ليعيد الحقوق إلى أصحابها، فقد بحث عن أصل ملكية تلك
الجارية حتى تبين له أنها وصلت إلى فاطمة بنت عبد الملك من طريق
غير صحيح فأعادها إلى أهلها.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن
الجوزي / ٨٧، ١٣١.

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى قال حدثني أبي عن جدي. قال: كانت لفاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر جارية، فبعثت بها إليه وقالت إني قد كنت أعلم أنها تعجبك وقد وهبتها لك فتناول منها حاجتك. فقال لها عمر اجلسي يا جارية فوالله ما شيء من الدنيا كان أعجب إلي أن أناله منك، فأخبرني بقصتك وما كان من سبيك؟ قالت: كنت جارية من البربر جنى أبي جناية فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على أفريقية فأخذني موسى بن نصير فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني عبد الملك لفاطمة فأرسلت بي إليك، فقال: كدنا والله نفتضح، فجهزها وأرسل بها إلى أهلها^(١).

وهكذا سما عمر بن عبد العزيز بإيمانه القوي وبقينه الراسخ على شهوات النفس، مع أن الظاهر من الخبر أن تلك الجارية مباحة له بعد أن أهدتها إليه زوجته التي تملكها، ولكنه لم يكن في وقته متسع للنساء بعد أن شغل جُل وقته بأمور الرعية، ثم ألهمه الله تعالى إلى البحث عن أصل تلك الجارية فتبين له أنها وصلت بطريق غير مشروع فردها إلى

(١) حلية الأولياء ٢٦٠/٥، وانظر تاريخ دمشق ١٩٥/٤٥، والبداية والنهاية ٢٠١/٩.

أهلها لأنها لم تُعَدَّ جارية مملوكة بل حرة اغتصبت من أهلها، وهكذا يفتح الله تعالى على السابقين بالخيرات أنواراً من الفرقان يفرقون بها بين الحق والباطل.

تورعه عن مزارع خيبر:

من ذلك ما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال: وكان عمر بن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خيبر والسويداء فسأل عن خيبر من أين كانت لأبيه؟ قيل: كانت في نَحْل رسول الله ﷺ فتركها رسول الله ﷺ فيئاً للمسلمين ثم صارت إلى مروان أبيك، ثم أعطاكها أبوك، فخرق عمر سجلها وقال: أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ^(١).

فهذا مثل على ورع عمر بن عبد العزيز واحتياطه بالبعد عن الشبهات، فحيث علم أن أصل مزرعة خيبر قد جعلها رسول الله ﷺ فيئاً للمسلمين، فإنه قد جعلها كذلك، مع أنه لم يبحث طريق وصولها إلى جده مروان.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦١، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩٠، وخبير مدينة تقع في السعودية شمال شرق المدينة المنورة وعلى بعد (١٦٨ كم).

تورعه عن حلي زوجته :

من ذلك خبر حُلِّيَّ زوجته فاطمة حيث قال لها : قد علمت حال هذا الجوهر ، وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين ، وأنفق ما دونه ، فإن خلُصت إليه أنفقته ، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليرُدَّنه إليك ، قالت له : افعل ما شئت ففعل ذلك ، فمات رحمه الله ولم يصل إليه ، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك ، فامتنعت من أخذه ، وقالت : ما كنت لأتركه ثم أخذه ، فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيهِ^(١).

فهذا ابتلاء داخل بيت عمر حيث تذكر أن حلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك قد أعطاها إياه أبوها ، ولعله كان من مال المسلمين العام ، فلم يسعه أن يبقيه بيديها وقد أخذ على نفسه أن يعيد إلى بيت مال المسلمين كل ما أخذ منه بغير حق .

وقد كانت له مطيعة بارة ، ثم تبين ورعها حين رد ذلك الحلي

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٢ ، وانظر الكامل لابن الأثير ٤ / ١٥٣ .

إليها أخوها يزيد فلم تأخذه.

لقد استطاع عمر بتوفيق الله تعالى أن يؤثر عليها وعلى بنيه، وأن يكون أسرة عالية في الصلاح والتقوى رحمهم الله جميعاً.

تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج:

ومثل آخر من روعه وسمو هدفه في هذه الحياة، فقد قال لمولاه مزاحم: إني قد انتهيت الحج فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر ديناراً، قال: وما تقع مني؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاء مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان، قال: اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفيننا، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصبنا منها.

فلما رأى عمر ثقل ذلك عليّ قال: ويحك يا مزاحم، لا يكثُرْ عليك شيء صنعته الله، فإن لي نفساً تواقّة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تآقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنما اليوم قد تآقت إلى الجنة^(١).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٨.

ففي هذا الخبر تورع عمر رحمه الله عن ذلك المال الذي لا يدري هل هو حلال أم حرام؟ ولم يرض أن ينفق منه في الحج كما كان قبل ذلك لا يرضى أن ينفق على نفسه من مال فيه شبهة، بل إن موضوع النفقة في العبادة أولى بالتحري والبعد عن الشبهات.

وفي آخر الخبر مثل من سمو تفكيره وعلو مقصده، حيث ذكر وصوله إلى أعلى قمة في الحياة الدنيا، وأن نفسه قد تاقَت إلى ما هو أعلى من ذلك بكثير وهو الظفر بنعيم الجنة، فأصبح يُسَخَّر كل ما بيده من سلطان للوصول إلى الجنة، ولذلك كان قويًّا في عدله، حازمًا في قراراته لأن هدفه الأعلى لا يحصل له إلا بذلك.

أما الذين يجعلون هدفهم منازل الحياة الدنيا فإنهم يترددون في إصدار القرارات ويتناقضون فيها بين الحين والآخر، لأنهم يراعون أمور الدنيا، وهي متقلبة بتقلب أبنائها.

تورعه عن دماء الناس وأموالهم:

هذا ومن نماذج تورعه عن دماء الناس وأموالهم ما جاء في كتابه إلى عدي بن أرطاة، عامله على البصرة حيث قال فيه: أما بعد فقد

جاءني كتابك تذكر أن قبلك عُمَّالاً قد ظهرت خيانتهم، وتسألني أن آذن لك في عذابهم، كأنك ترى أني لك جُنَّة من دون الله، فإذا جاءك كتابي هذا فإن قامت عليهم بينة فخذهم بذلك، وإلا فأحلفهم دُبُر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختانوا من مال المسلمين شيئاً، فإن حلفوا فخل سبيلهم، فإنما هو مال المسلمين، وليس للشحيح منهم إلا جهد أيانهم، ولعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم، والسلام^(١).

وهكذا كان عمر رحمه الله شديداً في محاسبة الولاة، حريصاً على أموال المسلمين، ولقد فهم والي البصرة أن مما يترتب على هذا المنهج أن يقوم بتعذيب العمال الذين ظهرت خيانتهم، فاستأذن أمير المؤمنين عمر في ذلك، فكان جوابه جواب الرجل الذي يخشى الله تعالى في دماء المسلمين وأعراضهم.

وقد أشار إلى نقطة مهمة وهي أن كل وال مسؤول عن عمله وعن كل ما يقوم به من إحسان أو عقوبة، وأن صدور الأوامر من

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥.

مسؤول أعلى منه لا يسوّغ وقوعه في الخطأ والتجاوز لأن المسؤول الأعلى قد لا يعلم تفاصيل الأمر كما علمها هو.

ويبين في كتابه لذلك الوالي أنه إذا قامت البينة على مسؤول بخيانة فيجب أخذه بذلك، وإن لم تقم عليه بينة فيكفي لبراءته ظاهراً أن يحلف بعد صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختان من مال المسلمين شيئاً.

ثم يختم عمر كتابه ببيان ما ينتظره و ينتظر الولاية من الوقوف للحساب بين يدي الله تعالى فيما إذا وقع منهم ظلم للآخرين، وفي هذا تذكير للمسؤولين بأن يراقبوا الله سبحانه، ويتذكروا وقوفهم بين يديه للحساب وهذا يجعلهم يترددون كثيراً قبل أن يقدموا على ثواب أو عقاب.

نماذج من تورعه عن المال العام:

من ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال: أعلم أمير المؤمنين أن بالبواب رسولا من فلان عامله، فدخل فأعلم عمر، وقد كان أراد أن ينام، فقعد وقال: إئذن له، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة

فأجبت نارًا، وأجلس الرسول، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذي حق حقه، وهل له شك وهل ظلم أحدًا؟

فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة، فلم يدع شيئًا إلا أنبأه به، كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسأله قال له: يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانك ومن تُعنى بشأنه؟ قال: فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال: يا غلام عليّ بسراج، فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء فقال: سل عما أحببت، فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال: يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرًا ما رأيتك فعلت مثله، قال: وما هو؟ قال: إطفأوك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك.

فقال: يا عبد الله إن الشمعة التي رأيته أطفئتها من مال الله ومال المسلمين وكنتُ أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة تقد بين يديّ فيما يصلحهم وهي لهم: فلما صرتُ لشأني وأمر

عياي ونفسي أطفأت نار المسلمين^(١).
فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عبد العزيز في غاية السمو
من الورع، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين.
ولو تصور أيّ مسؤول هذا الأمر لأدرك أن القليل جدًّا من
المسؤولين يُحظى بهذا التذكر السريع في أمر حقير كهذا، ثم القليل من
هؤلاء الذي يتورع بهذه الدقة، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين
العام في مثل هذا الأمر الصغير.
ويشبه هذا في حياة المسؤولين استعمال الورق والأقلام
والظروف ونحوها لصالح المسؤول الخاص مما كان خاصًا بالعمل.
وقد يحتقر المسؤول هذا الأمر ولا يُلقي له بالاً لعدم ظهور
النقص في الحق العام بصورة واضحة، ولكن المبدأ واحد في عدم
جواز استخدام حق المسلمين العام في الشؤون الخاصة، سواء في أمر
خطير أو في أمر حقير.
وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال: قال عمر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥ .

يا مزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي، قال فأتاه برحل فأعجبه، قال: من أين أصبتَ هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين دخلتُ بعض الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رَحْلاً. قال: انطلق فقوّمه في السوق. فانطلق فقوّمه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره، قال: تُرانا إن وضعنا في بيت المال ديناراً أنسلم منه؟ قال: إنّما قوّموه نصف دينار. قال: ضَعُ في بيت المال دينارين.

وأخرج أيضاً من خبر عليّ بن مسعدة قال: حدثنا رياح بن عبيدة قال أخرج مسك من الخزائن فلما وضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه، فقال له رجل من أصحابه: يا أمير المؤمنين ما ضرّك أن وجدتَ ريحه؟ فقال عمر: وهل يُبتَغى من هذا إلاّ ريحه؟

وأخرج أيضاً من خبر فُرات بن مسلم قال: كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كلّ جمعة فعرضتها عليه فأخذ منها قرطاساً قدر شبر أو أربع أصابع بقي فكتب فيه حاجة له، فقلت: غفل أمير المؤمنين. فلمّا كان من الغد بعث إليّ أن تعال وجيء بكتبك، فجئتُ بها فبعثني في حاجة، فلمّا جئتُ قال: ما آن لنا أن ننظر في كتبك

بعد، قلت: لا إنَّما نظرتَ فيها أمس. قال: خُذْها حتى أبعث إليك.
فلَمَّا فتحتُ كتبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدر قرطاسي الذي أخذ.
وأخرج من خبر عُبيد بن الوليد قال: سمعتُ أبي يذكر أنَّ عمر
ابن عبد العزيز كان يسخن له في مطبخ العامة ماءً يتوضأ به وهو لا
يعلم، ثمَّ علم بعد ذلك فقال: كم لكم منذ سخنتموه؟ فقالوا: شهر
أو نحوه. قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطبًا^(١).

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الحكيم بن عمر
قال: شهدت عمر بن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكة من
لحم، فعجل بها، فقال: أسرع بها! قال: شويتها في نار المطبخ-
وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم- فقال لغلامه: كُلْها يا بني
فإنَّك رزقتها ولم أرزقها^(٢).

فهذه الأخبار تفيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه
الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام، وهي تبين ورعه عن
أشياء صغيرة جدًّا لاتلفت نظر أكثر الناس، لكنه لدقة إحساسه

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٩٩ وانظر تاريخ دمشق ٤٥/٢١٤-٢١٩.

(٢) حلية الأولياء ٥/٢٩١.

بالحرام والشبهات تنبه لها، فقدم بذلك أمثلة رائعة للورع أصبحت
عبرة لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بعده رحمه الله تعالى
رحمة واسعة.

خوفه من الرياء والسمعة:

أخرج محمد بن سعد من خبر ميمون بن مهران قال: كنت في
سمر عند عمر بن عبد العزيز ليلة فتكلم فوعظ، قال: ففطن لرجل
حذف بدمعته فسكت، فقلت: يا أمير المؤمنين عُدْ لمنطقك لعل الله أن
ينفع بك من بلغه وسمعه، فقال: يا ميمون إن الكلام فتنة وإن الفعل
أولى بالمرء من القول^(١).

وهكذا سكت عن الوعظ حينما أحس بشيء من الإعجاب
بالنفس لما رأى أن كلامه أبكى ذلك الرجل، وهذا يدل على كمال
إخلاصه لله تعالى وقوة توحيده، وقد ذكر لميمون بن مهران أن الكلام
فتنة، وذلك أن الإنسان قد يعجب بنفسه لما يرى من قوة تأثيره على
الناس فيكون ذلك سبباً في نقص إخلاصه، حيث يتكلم ليراه الناس
فيمدحوه ويتحدثوا عنه.

(١) طبقات ابن سعد ٣٧١/٥ وانظر تاريخ دمشق ٢٢٩/٤٥ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن

الجوزي/ ١٨٤.